تقديم:

بريطانيا والقضية الكُردية

عندما تتحكم المصالح الاستعمارية في حياة شعب

أ. د. هوكَر طاهر توفيق
رئيس اللجنة العلمية للمؤتمر

لعبت بريطانيا الدور الرئيسي في خلق الشرق الأوسط الحديث، ورسم خطوطها التي صارت فيما بعد حدوداً لتلك الدول التي أسستها بريطانيا على انقاض ممتلكات الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. فلم تكن بريطانيا- تلك الدولة العظمى التي لا تغيب عنها الشمس- تكتفي بالقرن التاسع عشر للتلاعب في مصائر شعوب المنطقة بدءاً بالشعب العربي في الخليج ومصر، مروراً بالشعوب الكُردية والأرمنية والأشورية في الأناضول، وانتهاءاً بتقسيم هذه الشعوب بين عدة دول وخلق بؤر للصراعات القومية والدينية تضمن بقاءها في الشرق الأوسط طيلة القرن العشرين وربما القرن الذي يليه.

فبريطانيا هي التي حاربت روسيا القيصرية لئلا تتمدد في أراضي الشرق الأوسط، مخافة منها على ممتلكاتها في الهند، فضلاً عن شهيتها الاستعمارية التي ليست لها حدود، فهي التي حاربت روسيا في حرب القرم ١٨٥٣- ١٨٥٥، وفي الحرب الروسية- العثمانية سنة ١٨٧٧، وكانت من ابرز اللاعبين الاستعماريين في مؤتمر برلين تموز ١٨٧٨. ثم ان بريطانيا وعن طريق اتفاقية سايكس- بيكو- سازانوف أيار ١٩١٦ ووعد بلفور تشرين الثاني ١٩١٧، مزقت شعوب الشرق الأوسط ووجدت مع حليفتها فرنسا دول رأت النور لأول مرة في التاريخ صارت هذه الدول عبء على شعوبها لحد الآن مثل العراق وسوريا.

ولكن على الأقل وجدت الشعوب الأخرى دولاً تعيش تحت ظلها، دول تعبر عن هويتهم القومية والدينية، دول احتضنت تاريخهم وثقافتهم، كإيران التي تعهدت لها بريطانيا بعدم المساس بحدودها نتيجة لمواقفها في الحرب العالمية الأولى، والعراق والأردن ومعظم دول الخليج العربي التي أُسست تحت رعاية بريطانية رغم التقسيم ولكنها احتفظت بهويتها العربية، وتركيا

Zakho Centre
for Kurdish Studies
سەنتەری زاخۆ بۆ لێکۆڵینەوەی کوردی

التي فرضت على بريطانيا الاعتراف بحدودها في لوزان ١٩٢٣، ورغم مآسي الأرمن في الحرب العالمية الأولى إلا أنهم على الأقل احتفظوا بهويتهم القومية والدينية في مقاطعة ييريفان التي أسست على أراضيها الدولة الارمنية.

كان هناك استثناءاً واحداً من بين تلك الشعوب وهو الشعب الكُردي، الذي يعد، استناداً على المصادر التاريخية، من احد اقدم الشعوب التي ظهرت في الشرق الأوسط، فالكُرد لم يحصلوا على دولة مستقلة تحفظ هويتهم كباقي شعوب المنطقة، وقسمت كُردستان بين اربع دول هي (ايران، تركيا، العراق وسوريا)، وكل واحد من هذه الدول قامت بتعريف الكُرد على هويتهم القومية التي تبنتها هذه الدول الحديثة التكوين، فالكُرد في تركيا هم أتراك، وفي العراق وسوريا هؤلاء من أحفاد القبائل العربية ولا شك في أصولهم العربية القحة! أما ايران فلها نظريات لا تقبل الشك! بان اصل الكُرد هو فارسي والكُردية من احدى لهجات فارس.

تركت بريطانيا الكُرد في تركيا وايران وسوريا تحت رحمة حكامها الذين لم يبخلوا في البطش بهم كلما قاموا بثورة ضد تلك الحكومات العنصرية، أما في العراق فأخذت بريطانيا زمام الأمور بنفسها، فهي تعد المسؤولة الأولى في صنع الدولة العراقية الحديثة النشأة، كما أنها هي المسؤولة الأولى في ضم كُردستان الجنوبية بالعراق التي سميت في المصادر التاريخية بعد ذلك بكُردستان العراق، وهي التي ضمنت لبغداد تطويع الكُرد للاعتراف بالهوية الجديدة وهي الهوية العراقية التي أوجدتها بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى. فان الذي شن الحرب على الشيخ محمود الحفيد بين سنوات ١٩١٩- ١٩٣١، والشيخ احمد البارزاني ١٩٣١- ١٩٣٢، وملا مصطفى البارزاني ١٩٤٣- ١٩٤٥ كانت بريطانيا التي لولا قوتها الجوية التي كانت العامل الحاسم في ضرب هذه الحركات الكُردية، لم تكن بغداد بقادرة على الانقضاض عليها، هذه الثورات والحركات الكُردية التي كانت ترفض الهوية الجديدة- أي: العراقية- وتطالب بهويتهم الكُردية وبارضهم كُردستان.

بعد سنة ١٩٥٨ واثر ثورة تموز التي قادها عبد الكريم قاسم، ظن الجميع بان النفوذ البريطاني قد انحسر في العراق وكُردستان، بل في المنطقة كلها بعد ان حصلت دول الخليج العربي على استقلالها سنة ١٩٧١، وسلمت بريطانيا قواعدها العسكرية فيها إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتحل محل بريطانيا في مواجهة الاتحاد السوفيتي السابق، لذلك نرى عشرات بل مئات الدراسات والوثائق تركز فقط على السياسة الأمريكية تجاه العراق وكُردستان والخليج وايران...الخ، وتختفي السياسة البريطانية في المنطقة أو تصبح هامشياً ويمكن التعامل معها كما التعامل مع السياسة الفرنسية في المنطقة. وهكذا صارت بريطانيا في كُردستان العراق، وصار الكُرد

Zakho Centre
for Kurdish Studies
سەنتەری زاخۆ بۆ لێکۆڵینەوێ کوردی

فيها يتعاملون مع أمريكا وخير دليل على ذلك هي ثورة أيلول ١٩٦١- ١٩٧٥ بقيادة ملا مصطفى البارزاني التي اعتمدت كليا على أمريكا خاصة في سنوات السبعينات من القرن المنصرم.

ولكن يبدو ان بريطانيا لم تنسحب كلياً من منطقة الشرق الأوسط، وتحديداً من العراق وكُردستان، وبقيت تمسك بخيوط السياسة والاقتصاد فيها ولكن من وراء الستار، فان ما حدث للكُرد بكركوك في ١٦ أكتوبر ٢٠١٧، خير دليل على ذلك، فعندما سيطر الجيش العراقي مع قوات الحشد الشعبي على مدينة كركوك واخرجوا قوات البيشمركة التابعة لإقليم كُردستان العراق منها، لم تمضي سوى أيام قليلة حتى قامت الحكومة العراقية بدعوة شركة النفط البريطانية (BP) لتطوير حقول النفط في كركوك واستلام إداراتها، وظهر للعيان بانه كانت لبريطانيا دوراً كبيراً في إخراج حكومة إقليم كُردستان وجيشها البيشمركة من هذه المنطقة وتسليمها إلى بغداد باعتبار بريطانيا وشركتها النفطية لها ولوحدها الحق في التصرف بنفط كركوك وبمستقبل المنطقة، لأنها هي من أسست دولة العراق الحديثة، وان شركتها هي من أخرجت النفط من كركوك لأول مرة في سنة ١٩٢٧، لذلك فان من يقترب من مصالحها في هذه المنطقة لها كامل الحق في الرد على من يهدد تلك المصالح.

ولكن السؤال هنا لماذا لا تحتضن بريطانيا السياسية الكُردية مثلما احتضنت السياسة العربية أو التركية أو الإيرانية؟ هل المشكلة في الكُرد كقومية أنهم لا يعرفون إدارة الدولة كما أكدتها بريطانيا في العديد من وثائقها ودراساتها؟ أم المشكلة في بريطانيا التي لم تكن الى جانب الكُرد يوماً من الأيام؟ فخلال العهد الإماراتي في كُردستان في النصف الأول من القرن التاسع عشر أخذت بريطانيا جانب الأتراك والسلطة العثمانية في إسطنبول ضد توسعات الإمارات الكُردية بهدف منع التغول الروسي في الشرق الأوسط، وإبان عهد المسألة الارمنية التي امتدت بين سنوات ١٨٧٨- ١٩٢٠ أخذت بريطانيا جانب الأرمن ضد الكُرد، وفي أيام تأسيس الدول القومية بعد الحرب العالمية الأولى أدارت بريطانيا ظهرها للكُرد وقامت بتقسيم كُردستان بين اربع دول، وفي عهد الدولة العراقية ذي الطابع العربي أخذت بريطانيا جانب بغداد وحاربت كل ما هو كُردي؟

لذلك كان الهدف من وراء عقد هذا المؤتمر، هو محاولة قراءة جديدة للسياسة البريطانية في كُردستان، بالعودة إلى التاريخ أولاً وكشف ملابساتها من جديد لعلها تفيد حاضر ومستقبل كُردستان. وعلى الكُرد ان يتداركوا المواقف الدولية تجاه قضيتهم القومية المشروعة، فطالما أكد الساسة والمؤرخون الكُرد بان الدول العظمى كانت لها الباع الأكبر في عدم تمكن الكُرد من تأسيس دولتهم القومية، لذلك يجب توخ الحذر والدقة في التعامل مع هذه القوى وبناء سياسات جديدة، من قبل مراكز القوى الكُردية، بهدف معرفة كيفية التعامل مع هذه القوى العظمى في المستقبل لئلا تصبح القضية الكُردية ضحية لمصالحهم من جديد.

Zakho Centre
for Kurdish Studies
سەنتەری زاخۆ بۆ لێکۆڵینەوەی کوردی